الكتابة المجلسية في الأدب العربي القديم

ليالي التوحيدي في (الإمتاع والمؤانسة) أنموذجا

فهد إبراهيم سعد البكر

محاضر بقسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب

جامعة حائل

المملكة العربية السعودية

١٤٣٤ هـ/٢٠١٣م

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وأجمعين.

يهتم هذا البحث بفن أدبي قديم النشأة ، حديث الاهتمام ، رغم غزارة ما يحويه من علم ومعرفة ، وما يضمه من أدب وثقافة ، وتعبير عن الحياة القديمة في مختلف جوانبها الدينية ، والعلمية والسياسية ، والحضارية.

ويتكون هــذا العمل من مقدمة ، ومدخل ، وأربعة مباحث رئيسية ، وثلاثة محاور فرعية وخاتمة ، وقائمة بمصادر البحث.

وسَيُمَهِّدُ مدخلُ هذا البحث الطريقَ للتعرف على مفهوم الكتابة المجلسية وما تعنيه ، ومحاولة تجنيسها ، وما قد يصاحب ذلك من مصاعب.

ثم يتناول البحث في مبحثه الأول حد الكتابة المجلسية وأركانها ، وموضوعاتها ، ومنهجها وتاريخها ، ونماذج لما أُلِّف فيها من كتب ، ثم يأتي المبحث الثاني معرفا بالتوحيدي وكتابه (الإمتاع المؤانسة) وفي هذا المبحث محاور ثلاثة حول أصل الكتاب ولمن أُلِّف؟ وموضوعات الكتابة المجلسية ومنهجها وأجناسها الأدبية ، ثم يكشف المبحث الثالث عن قضايا الكتابة المجلسية في كتاب التوحيدي؛ ثم يدلف البحث إلى آخر المباحث وهو المبحث الرابع حيث يتحدث عن وظائف الأديب وأدوار المتلقي في الكتابة المجلسية.

ثم خاتمة العمل وما توصل إليه من نتائج وتوصيات ، ثم مصادر هذا البحث.

مدخل

قد يتبادر إلى ذهن القارئ منذ النظرة الأولى على العنوان (الكتابة المجلسية) لماذا لم نجنّس هذا اللون الكتابي ؟ ولماذا لم نضع مسمى خاصا به كبعض تلك التسميات التي يوظفها الباحثون والنقاد عند تسمية الأجناس والأشكال الأدبية (فن – أثر – شكل)؟ هذه تساؤلات قد يفترضها المتأمل في مثل هذا العنوان ، لكنه سيجد لنا العذر حين يدرك أن فضاءً رحبا من الكتابة يجمع صنوفا عدة من الأجناس والأشكال يصعب تجنيسه أو ربما تأطيره بنوع أدبي محدد ، هذا إذا أدركنا أيضا عدم القصد إلى تأليف مثل هذا اللون من الكتابة ، وعدم كثرته ، وعدم تطور مصطلحه تاريخيا.

من هنا يمكننا القول بأن الكتابة المجلسية أثرٌ أدبي ، أو فنٌّ حواري شفاهي أو كتابي ، وُلدَ من رحم المجالس الأدبية ، تلك المجالس التي كانت تُعقد قديما في مؤسساتٍ ثقافيةٍ ، أو علميةٍ ، أو سياسيةٍ متنوعة ، وذلك كالمجالس المعقودة في المساجد ، أو البلاطات ، أو الأسواق ، أو الأندية أو المحافل الرسمية والشعبية عموماً.

وهذا الأثر الأدبي ، أو الفن الحواري ، يضمّ في فلكه أجناساً أدبيةً متنوعة شعرا ونثرا ، فنجد فيه إضافة إلى الشعر ، الأخبار – بوصفها شكلاً شاملاً للأجناس الأدبية – ونجد فيه الرسائل ، والحكم والأمثال ، والخطب والوصايا ، والمقامات ونحو ذلك؛ لذا فهو أعمّ من الجنس الأدبي ، ويمكن أن نصطلح عليه فن الكتابة المجلسية لاشتماله على ركني الأدب : الشعر والنثر.

والكتابة المجلسية رغم اشتمالها على أجناس أدبية متنوعة ربما شاكلت بعض هذه الأجناس وحاولت السير بمحاذاتها قليلاً؛ فالكتابة المجلسية مثلاً قد تضارع الخطبة في ملامحها الشفاهية والتدوينية ، فالخطبة تنعقد في ظروف قولية رسمية ترتبط بأشكال خارجية تميّزها ، كالارتجال وارتقاء المنابر ، وجلجلة الصوت ، وقوة الفصاحة والبيان ، وربما دُوّنت الخطب بعد الأعصر الإسلامية الأولى.

وحين نتعرف على عالم الكتابة المجلسية فإننا نجد لها طرفاً من تلك الظروف القولية الخارجية فهي مرتبطة بمكان انعقاد المجلس الذي عادةً ما يكون سياسياً في بلاط الحاكم ، أو دينياً علمياً في المسجد ، أو أدبياً في السوق ، أو مكان ما من أماكن اجتماع القوم ، وهذا أمر مرتبط بظروف المتلقي والمخاطب الذي قد يكون واحداً ، وقد يكون جماعة ، كما يتميز المجلس بشكل آخرَ يميزه وهو الإملاء ، وهذا أمر مرتبط بالكتابية ، وربما كان المجلس شفاهياً ثم دوّن بعد ذلك كما حدث مع التوحيدي في لياليه على نحو ما سنلمح إليه.

المبحث الأول : الكتابة المجلسية ، تحديد وتأطير :

قبل أن نعرف الكتابة المجلسية ونحدد أركانها ، ومنهجها ، وموضوعاتها ينبغي أن نتعرف على ماهو المجلس الذي نحن بصدده؟ وماهي إشكالاته التي يفترضها؟

عُدّ المجلس في الثقافة العربية القديمة ظاهرة حضارية مكّنت من تحصيل كل ما يتعلق بوسائل إنتاج هذه الثقافة ، وأشكال تلقيها ، وكيفيات تداولها ، وتقنيات توظيفها ، وتشكيل الرؤى والمواقف والتعبير عن هذه الرؤى من خلال الإبداع[١].

وعلى هذا يتعين علينا أن ندرك الشكل الذي به تستوي الكتابة المجلسية فناً أو أثراً أدبياً فنقول: إن الكتابة المجلسية تأتي على نسقين يعرفان بها وتعرف بهما :

١ – القصّ و الإخبار[٢](المجالس). ٢ – الإملاء (الأمالي).

ومن هنا نجد مفهوم الكتابة المجلسية محوطاً بين الشفاهية من جهة ، والكتابية من جهة أخرى ويلفها السرد في أنحاءٍ متنوعة ، وهو سمة من سماتها الثانوية ، لكنه ليس شكلاً ثابتاً ، أو رئيسياً فيها كالقصة مثلاً ، فالقصّ والإخبار طريقة عامة يستوي فيها الناس جميعاً في الإفادة منها ، وركوب مسالكها.

---

(١) أدبية النص السردي عند أبي حيان التوجيدي ، حسن إبراهيم الأحمد ، د.ط ، التكوين للتأليف والترجمة والنشر ، دمشق ٢٠٠٩م ، ص٥١.

(٢) الإخبار وليس الأخبار.

أما الإملاء فهو طريقة ارتبطت بالتعليم والتربية؛ لذا فهو مقصور على العلم وأهله والأدب وأربابه ، ومن هنا فهو أعلى منـــزلةً ، و أرفعُ درجةً ، وقد يكون في الإملاء قصٌّ وإخبار إلا أنه مرتبط بالتدوين في حين أنه شفاهي في الأول (المجالس) ، وهو بذلك قديم في شكل المجالس المرتبط بالشفاهية ، حديث في الإملاء المرتبط بالكتابية.

ويمكن القول بأن الكتابة المجلسية تقوم على ركنين : المجالس والأمالي ، لكن البعض – خطأً– يجعلهما تحت شكل واحد يعرف بالمجالس الأدبية ، ومن هنا وجب علينا التفريق بين الاتجاهين ليس من حيث الشفاهية والكتابية ، بل من حيث الأشكال الخارجية ، والآثار الفنية ، والارتباطات الزمنية والمكانية ، فضلا عن الجماليات الأدبية.

ويظهر لي أن مثل هذا الخلط جعل بعض القدماء لا يفرق بين الأمالي والمجالس؛ فكتاب (مجالس ثعلب) لأبي العباس أحمد بن يحيى الذي حققه عبدالسلام هارون اختُلِف في تسميته ، فابن النديم ميّز بينها من حيث الشفاهية والكتابية بقوله : "ولأبي العباس مجالسات أملاها على أصحابه في مجالسه تحتوي على قطعة من النحو واللغة والأخبار ومعاني القرآن والشعر ..."[٣] فَرَبَط المجالس والمجالسات بالمكان ، وربط الإملاء بالتدوين ، وقد وافق الحمويُّ ابنَ النديم في رأيه هذا [٤]

([٣]) الفهرست ، ابن النديم ، تحقيق : الشيخ إبراهيم رمضان ، ط/٢ ، دار الفتوى ، بيروت ١٤١٧هـ، ص ١٠١.

([٤]) ينظر : معجم الأدباء ، الحموي ، تحقيق : إحسان عباس، ط/ ١، دار الغرب الإسلامي،بيروت١٩٩٣م ٥٥٣/٢.

وسماها القفطي : المجالس [٥] وكذا قال ابن خلكان [٦] أما السيوطي فقد أطلق عليها (أمالي)[٧].

وعلى هذا فإن ثمة فروقاً تطالعنا بين المجالس و الأمالي كلما دققنا النظر ، ويبدو من خلال هذا العرض أن المجالسَ أعمُّ من الأمالي وأشمل؛ إذ يدور فيها كل ما يمكن من شرح ، أو تفصيل أو إجمال ، أو إبهام ، أو عرض ، أو سؤال ، أو جواب ، أو نحو ذلك ، كما أن دور الملقي فيها يتراوح بين الأخذ والرد ، أما الأمالي فدور المملي فيها أكثر أهمية من المستملي الذي يقتصر دوره – غالبا – على السماع والكتابة فقط ، وعليه فالأمالي أكثر تنقيحًا واهتمامًا واستدراكاً وتصويباً ، وهي أشبه بالمبيضة التي هي خلاصة مسودات المجالس.

إذن نحاول الوصول إلى وضع ضابطٍ للمجالس والأمالي ، فنقول:

---

(٥) ينظر : إنباه الرواة ، القفطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/١ ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت
١٤٢٤هـ ، ١٨٦/١.

(٦) ينظر : وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، تحقيق : إحسان عباس ، ط/٤ ، دار صادر ، بيروت ، ١٠٤/١.

(٧) ينظر : المزهر ، السيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون ، ط/١ ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ١/ ١٢٣، ١٢٦، ١٢٩، ٢/ ١٩٠، ١٩١.
وينظر أيضا : بغية الوعاة ، السيوطي ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، ط/١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٢٥هـ ، ٣٢٧/١.

المجالس : أحاديث مختارة ذات موضوعات مختلفة في الأدب ، أو التاريخ ، أو السياسة ، أو الدين ، أو المنطق ، أو الفلسفة ، أو المعارف عامة ، يتلقفها جمهور خاص أو عام ، وتدور عادة في بلاط الحاكم وذوي السلطة سواء أكانوا خلفاء أم أمراء أم وزراء ونحوهم ، أو حِلق العلم في المساجد والجوامع ، أو الأسواق والأندية والمحافل ، وهي إلى المشافهة أقرب منها إلى التدوين ، على أنها ربما هُذِّبت ونقّحت ودُوّنت بعد إلقائها وإذاعتها.

أما الأمالي فعرّفها حاجي خليفة صاحب (كشف الظنون) بقوله : "الأمالي جمع الإملاء وهو أن يقعد عالم وحوله تلامذته بالمحابر والقراطيس ، فيتكلم العالم بما فتح الله سبحانه وتعالى عليه من العلم ، ويكتبه التلامذة فيصير كتابًا ويسمونه الإملاء والأمالي ، وكذلك كان السلف من الفقهاء والمحدثين ، وأهل العربية وغيرها في علومهم ، فاندرست لذهاب العلم والعلماء وإلى الله المصير، وعلماء الشافعية يسمون مثله التعليق"[٨].

ويتضح من هذا التعريف أن الأمالي تقوم في أصل نشأتها على التدوين والكتابة على خلاف المجالس التي تنشأ على المشافهة ، وربما يطالها التدوين بعد ذلك.

---

(٨) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، تصحيح : محمد شرف الدين ، ورفعت الكليسي د.ط. دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان د. ت ، مج ١ ، ص ١٦١.

- **المنهج في الكتابة المجلسية :**

من خلال ما مضى من حديث عن الكتابة المجلسية وتفريعها إلى فرعين : المجالس والأمالي ، يبدو لنا منهج الكتابة المجلسية أكثر وضوحاً من خلال ما أوردناه من تعريف ، فالمجالس التي تعتمد المشافهة طريقة لها لا تخلو من اضطراب في منهجها الذي تسير عليه ، وهو اضطراب فرضه تنوع الموضوعات ، وتدفق الأفكار ، وغايات المخاطب الذي يشارك في العملية الحوارية بالأخذ والرد والسؤال والجواب ، يضاف إلى ذلك ما قد يصاحب المجلس من طول النفس السردي وقصره ، وكثرة الجمهور وقلّتهم ، وإن كانت طبيعة المجلس – ولا سيما السياسي – تفرض أجواءً تؤثر في المنهج سلباً وإيجاباً ، فضلا عن طبيعة المتلقين في المجلس السياسي أيضًا.

أما الأمالي فمن طبيعة التدوين التنقيح والتصحيح والتبييض حتى ولو كان ذلك بعد انقضاء مجلس الإملاء؛ ولهذا فهي تخضع لمنهج المملي في إملائه ، وهو ما يعني أن الأمالي عادةً ما تصدر مختارةً أو منتقاةً ، وقابلة للتعديل قبل التدوين ، وهذا الأمر يسهم في ضبط منهج واضح لها وفق شكل متزن وثابت يخضع للفحص والترتيب.

ومن هنا فإن منهج الكتابة المجلسية منهج يحدد ثباته واضطرابه ظروف المجلس وطبيعة المخاطب وما يقوم عليه المجلس من مشافهةٍ أو تدوين ، وهذا المنهج إذا كان المجلس أو الإملاء واحدًا ، أما مجموعة المجالس والأمالي المضمومة بين دفتي كتاب فهذه من المعروف أن منهجها مرتبط بالمكان والزمان ، ولهذا فهي متغيرة

متشكلة لا تسير على وتيرة موضوعية واحدة ، فقد يحدث فيهـــا الخلـــط أو التكرار ، أو الاستطراد على نحو ما سنرى مثلاً في ليالي التوحيـــدي التي يحدث فيها التكرار أحياناً وفق حاجات المجلس وظروف المخاطب.

على أنه ربما جُمعت المجالس في كتاب واحد وسارت على منهج ثابت ، كما في مجالس ثعلب اللغوية التي انتظتمها المسائل اللغوية والنحوية في موضوعها ، ولهذا فإن منهجها واضح ، وطريقتها معروفة تقوم على الإخبار والاستخبار ، والسؤال والجواب ، ومثل هذا المنهج في موضوعه وطريقته في المجالس نجده في كتابٍ حديثٍ هو (العود الهندي عن أمالي في ديوان الكندي) لمؤلفه السيد عبدالرحمن بن عبيد الله السقاف (ت١٣٧٥هـــ) وهو عبارة عن مجالس أدبية حديثة تحوي موضوعًا واحـــدًا حول ديوان المتنبي ، كان يمليها مؤلفها من عفو خاطره ، ويفيد أحيانًا من شرح العكبري وأحيانا يستلهم من ذوقه وحافظته كما كان يفعل الأوائل[٩].

وهذا الكتاب قام مؤلفه بتبييضه وإخراجه على نسق منتظم وفق مجالس متعددة ، فـــي كل مجلس يورد بيتاً ثم يشرحه ، وأحيانًـــا يطيـــل فيه ، وأحيانًا يقصّر ، ويبدو لي أن هذا الكتاب من آخر ما وصـــل مـــن أشكال الكتابة المجلسية في عصرنا هذا ، وهو خير ما يمثـــل المجـــالس الأدبية في عصرنا هذا.

---

(٩) ينظر : العود الهندي عن أمالي في ديوان المتنبي ، عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، ط/٢ ، دار المنهاج ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

وبشكل عام فإن الكتابة المجلسية لا تخضع لما تخضع له الأجناس الأدبية من ثبات المنهج كاملاً وفق تقسيم وتبويب قد يكون متوائمًا مع المادة الأدبية المنقولة ، فطبيعة الكتابة المجلسية التوسع وهو ما يشير إلى طولها وعدم وضوح منهجها نظرا إلى الظروف الخارجية التي ألمحنا لها سلفاً ، ولكنها قد تدور في فضاء موضوعي متشابه يجعل منها نظامًا متحكمًا أو لنقل متوائمًا ، إلا أن ذلك من النادر ، فالأصل في منهج الكتابة المجلسية الاستطراد والتوسع ومدّ النفس السردي في مدارٍ لا يميزه إلا عدم الثبات والاتزان.

- **موضوعها:**

تتفاوت موضوعات الكتابة المجلسية وتتنوع بحسب ظروف المجلس ومضامينه وما يتطلبه من أفكار ورؤى يفرضها المنشئ والمتلقي ، والمجالس ليست محصورة على الدين وعلومه كما نجدها في السابق مرتبطة بمجالس الذكر في المساجد من حلق العلم وحفظ القرآن وتعلم السنة المطهرة ، وقد يكون فيها تعلم اللغة العربية وعلومها وآدابها ، ومن هنا فالكتابة المجلسية قد تكون دينية في الدين وعلومه كالقرآن والسنة والتفاسير والفقه والفرائض ونحوها ، كما قد تكون لغوية في علوم اللغة كالنحو والصرف على نحو ما مرّ معنا في مجالس ثعلب ، ومثله أمالي الزجاجي وابن الشجري ونحو ذلك كما قد تكون الكتابة المجلسية أدبية المحتوى تدور في فلك الأدب وتحلّق في سماء المنظوم والمنثور وأشعار العرب وأخبارها وأيامها ، وقد تكون فلسفية ، أو طبية ، أو علمية ، أو نحو ذلك ، ومن هذا المنطلق فإن موضوعات الكتابة المجلسية متنوعة بتنوع أفكارها ومنطلقاتها ، ورغبة أربابها.

على أنه ربما ضم المجلس الديني مضامين أدبية ، أو حفل المجلس العلمي بمعاني دينية ، أو فلسفية ونحوها ، وهذا يشير إلى أن التـــداخل في مضامين الكتابة المجلسية سمة من سمات موضوعاتها وهو ما يؤكد ما ذهبنا إليه سابقا من عدم اتزان المنهج ووضوحه في هذا النوع مـــن الكتابة.

- **تاريخها:**

بدأ تاريخ الكتابة المجلسية منذ العصر الجاهلي حين كانت المجالس الأدبية تعقد في بلاطات ملوك العرب أو العجم ، كما كان للأندية والأسواق القديمة دورها في حضور تلك المجالس مثل ما شاهدناه في سوق عكاظ ، وذي المجاز ، ومجنة ، والمربد بعد ذلك وغيرها من الأسواق ، إضافة إلى الاجتماعات المعقودة في المحافل ، كتلك التي كانت ترعاها علية القبائل ورؤساؤها ، وأصحاب النفوذ فيها.

وحين أتى الإسلام اقتصر دور المجالس على جانبين :

- الأول : ديني.
- الثاني : سياسي.

فأما الأول فيظهر في مجالسه صلى الله عليه وسلم التي كان يعلّم الناس من خلالها ، ويدعوهم إلى الدين الحق ، وكان من طبيعة المجالس الوعظية في عهده صلى الله عليه وسلم الوقار والسكينة والعلم[١٠].

ثم انبعث الاهتمام بالمجالس الأدبية في الأعصر الإسلامية ، فبدأ يأخذ شكل الراوية والقص والإخبار وتطور إلى أن ظهرت الأمالي مع التدوين ، وقد أحصى حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون) كثيرًا من المجالس والأمالي ، امتدت من القرن الثالث الهجري حتى العاشر ، ويبدو أن الكتابة المجلسية فـــي القرن العاشر الهجري بدأ يخفت ضوءها ، وصار دورها مقصورًا على إملاء الحديث إلى أن جاء السيوطي (ت٩١١هـــ) وأيقظ الكتابة المجلسية الأدبية من رقدتها ولكن دون جدوى.

يقول في (المزهر): "ولما شرعتُ في إملاءِ الحديث سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وجددته بعد انقطاعه عشرين سنة من سنة مات الحافظ أبو الفضل بـــن حجر أردت أن أجدّد إملاء اللغة وأحييه بعد دثوره ، فأمليت مجلسًا واحدًا ، فلم أجد له حملة ولا من يرغب فيه فتركته"[١١].

---

(١٠) للتعرف على وصف المجالس في القديم في عهده صلى الله عليه وسلم ينظر مثلاً : إتحاف النبلاء بوصف مجالس العلماء السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط/١، مكتبة طبرية، الرياض ١٤١٣هـــ، ص ١٧.

(١١) المزهر ، السيوطي ، ٢٣٧/٢.

ولنؤكد على أهمية هذا الفن من الكتابة وأقدميته وتنوعه نختم هذا المبحث بالإشارة إلى بعض النماذج من المؤلفات التي كانت تمثل ذلك الفن بفرعيه : المجالس ، والأمالي :

فأما الأمالي فمنها :

١ – أمالي ابن دريد (ت٣٢١هـ).

٢ – أمالي القالي (ت٣٥٦هـ).

٣ – أمالي بديع الزمان الهمداني (ت٣٩٨هـ).

٤ – أمالي القاضي عبد الجبار (ت٤١٥هـ).

٥ – أمالي ابن عساكر في الحديث (ت٥٧١هـ).

٦ – أمالي ابن الشجري (ت٥٧٢هـ).

٧ – أمالي ابن الحاجب (ت٦٧٢هـ).

وأما المجالس فمنها :

١ – مجالس ثعلب (ت٢٩١هـ)

٢– المجالسة لأحمد بن مروان الدنيوري (ت٣١٠هـ).

٣ – مجالسات العلماء لخجخج (ت٣٢٠هـ).

٤ – مجالسات ثعلب بن مقسم النحوي (ت٣٥٣هـ).

٥ – ليالي التوحيدي (ت٥٤١٤).

٦ – أدب المجالسة لابن عبد البر (ت٤٦٣هـ).

ولو استعرضنا المؤلفاتِ حول الكتابة المجلسية فإننا بإزاء تاريخ طويل كانت بداياته في القرن الثالث الهجري ، أما في العصر الحديث فلم يعد للكتابة المجلسية أثر يذكر إلا من خلال بعض الأمالي المحدودة التي يدونها طلبة العلم في المساجد والحرمين مع شيوخهم ، أما المجالس الأدبية فلم نجد لها أثرًا إلا في حدود ضيقة ونادرة كما فعل السيد عبدالرحمن السقاف (ت١٣٧٥هـ) في كتابه سالف الذكر (العود الهندي) حيث قام بإحياء المجالس والأمالي ، وإعادة الهيبة لمجالس العلماء ، وإحياء طريقة الإملاء.

ولهذا يمكننا القول بأن مثل هذا الكتاب يعد أنموذجًا للكتابة المجلسية الحديثة وإن كان يختلف عن بعض مظاهر المجالس القديمة بتخلصه من جناب السلطان ، وتخفّفه من التفاعل المباشر المرتبط بجمهور المتلقين.

وخلاصة القول إن الكتابة المجلسية قديمة الحضور في نشأتها الشفاهية والكتابية لكنها على صعيد الاهتمام النقدي حديثاً لا نكاد نجد لها آثاراً واضحة من حيث عناية الدارسين والمتخصصين.

المبحث الثاني : التوحيدي وكتابه (الإمتاع والمؤانسة)

المحور الأول – حول التوحيدي وكتابه:

يعد التوحيدي : علي بن محمد بن العباس الشيرازي الأصل من المتفننين في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والفقه والكلام ، وكان كثير التحصيل ، واسع الدراية والرواية ، وله تصانيف كثيرة[١٢].

ومن بين أشهر مؤلفاته كتابه (الإمتاع والمؤانسة) وهو من التصانيف المتفردة؛ ذلك أنه جاء تحولاً بين الشفاهي والمكتوب ، مترجمًا لثقافة مؤلفه وثقافة عصره مفصحاً عن أثرٍ أدبي ضخم بما حواه من مجالس علمية وفكرية وأدبية وفلسفية كان يعقدها في ليالٍ متعددة .

وتعتبر هذه الليالي أصل الكتابة المجلسية المتكئة على الرواية ، والأخبار والأسانيد الشفاهية التي استحالت مكتوبة بعدئذٍ ، ونتج عنها اتساع في الأفق الثقافي والأدبي ، وتطور في أساليب التأريخ الأدبي المرتبط بالجوانب الاجتماعية والحضارية والسياسية والمعرفية.

- أصل هذا الكتاب ولمن ألّف ولماذا؟

أصل هذا الكتاب مسامراتٌ كانت بين التوحيدي ووزير صمصام الدولة البويهي: الحسين بن أحمد بن سعدان ، وتوثقت علاقة التوحيدي بالوزير بعدما قرّبه منه أبو الوفاء المهندس وعرّفه به حتى أصبح التوحيدي من

([١٢]) ينظر : معجم الأدباء ، الحموي ، المصدر السابق ، ١٩٢٣/٥.

سمّار الوزير ، فسامره التوحيدي أربعين ليلةً كان يحادثه فيها بأسلوب حواري شفاهي قائم على السؤال والجواب ، والطلب والاستفسار [١٣].

وقد طلب أبو الوفاء المهندس – حلقة الاتصال بين التوحيدي والوزير – من التوحيدي أن يقص عليه ما دار بينه وبين الوزير في تلك الليالي فكانت هذه المدونة (الإمتاع والمؤانسة) استجابة من التوحيدي لصديقه الأول صاحب الفضل الأسبق (أبوالوفاء المهندس) وكأن هذه المجالس المدونة اعتراف بالجميل من التوحيدي لأبي الوفاء نظير وصله بالوزير.

وللكتابة المجلسية في الأدب العربي القديم مجالات واسعة ، ونطاقات عدة ، فهناك الأمالي والمناظرات ، والمطارحات ، والمسامرات ، والمحاورات ، والمقامات ، والمنادمات ، والمنافرات ، ويمكن أن يلفها اسم المجالس بحيث تضم أكثر هذه المجالات.

والناظر في كتاب التوحيدي (الإمتاع والمؤانسة) يجده يجمع بين ضروب متنوعة من تلك المجالات وإن كان أكثر اعتماده على المسامرات وما يدور فيها من محاورات، من هنا جاء الكتاب معبرًا عن شكل الكتابة المجلسية، وما تتسم به من أسلوب أدبي يهتم بذوق المتكلم والمخاطب، وثقافة العصر بما فيها من ردود الأفعال والاستجابة ، هذا فضلا عن امتلاء هذا الكتاب بأجواء القص والسرد والتأريخ للعصر المعاش ، والعصور السابقة.

---

(١٣) الإمتاع والمؤانسة ، التوحيدي ، عني به : عبدالرحمن المصطاوي ، ط/١، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤ م ، ص :٤٢.

المحور الثاني – موضوعات الكتابة المجلسية في (الإمتاع والمؤانسة):

يمكن القول بأن ليالي التوحيدي قد طرقت موضوعات عديدة في الأدب والفكر والثقافة والسياسة والمنطق والفلسفة والدين والأخلاق وهي موضوعات تناولت ثقافة العصر ومتطلبات المجتمع آنذاك ، وتعتبر هذه الموضوعات روافد فكرية رئيسة تشكل أساسًا قويًا لصلب الكتابة المجلسية وما يدور فيها من حوار.

ويتفرع عن هذه الروافد الموضوعية الرئيسة موضوعات أخرى يمكننا أن نجعلها عناوين لتلك الليالي إذا أردنا ، ويمكن إجمال تلك الموضوعات كما يلي:

١ – الأدب والنقد :

حيث عالجت تلك الليالي بعض القضايا المتصلة باللغة والأدب والنقد كالحديث عن قضايا الشعر والنثر ، وإيراد نصوص من ذلك كثيرة ، وما يتبع ذلك من موضوعات نقدية كالموازنة بين الكتّاب والمفاضلة بينهم في الليلة الرابعة [١٤] والموازنة بين البحتري وأبي تمام في الليلة الأربعين [١٥] هذا إضافة إلى استلهام بعض الأفكار من الآداب الأخرى

([١٤]) الإمتاع والمؤانسة ، التوحيدي ، المصدر السابق ، ٣٧٦.

([١٥]) نفسه ، ٩٩.

كالأدب اليوناني في الليلة العاشرة [١٦] وهذا على سبيل المثال ، وإلا فموضوعات الأدب التي نوقشت في تلك الليالي أكثر من أن تحصى.

٢ – السياسة :

ويظهر ذلك مثلاً في استعراض بعض آثار الأمم السابقة القريبة العهد أو البعيدة ، وفي الليلة العشرين [١٧] مثلاً بعض أحاديث عن السيرة النبوية ، وسير بعض الخلفاء الراشدين ، وبعض أحداث جرت للصحابة ، وبعض خلفاء بني أمية كعبد الملك بن مروان وغيرهم.

٣ – الدين والأخلاق :

تظهر في الكتابة المجلسية لدى التوحيدي في بعض لياليه أحاديث عن أخلاق الأمم وطباعها ونلاحظ ذلك مثلاً في الليلة الخامسة عشرة[١٨]والحديث عن القضاء والقدر في الليلة السادسة عشرة[١٩].

٤ – الثقافة العامة :

وتتضح في مجالس التوحيدي سعة أفقه العلمي حيث يناقش في بعض تلك الليالي أمورًا علمية دقيقة كالحديث عن الحساب والبلاغة وتفضيل أحدهما على الآخر في الليلة السابعة[٢٠] والحديث عن الحيوانات

([١٦]) نفسه ، ١٨٥.

([١٧]) نفسه ، ١٣١.

([١٨]) نفسه ، ١٣٥.

([١٩]) نفسه ، ٥٩.

([٢٠]) نفسه ، ٩٦.

وطباعها وفق معلومات قيّمة في الليلة العاشرة ، وكأن هذه الليلة ليلة في الأحياء والعلوم فقد تحدث عن أنواع الحيوانات وأشعارها وأوبارها وأسنانها وعظامها ونحو ذلك .

٥ – المنطق والفلسفة :

يناقش التوحيدي في بعض لياليه أفكارًا منطقية كالمقارنة بين العرب والعجم ، والمفاضلة بينهما في الليلة السادسة[٢١] ومثل ذلك تلك الأفكار الفلسفية التي يوازن فيها بين بعض الطباع والعادات النفسية كالمحبة والشهوة ، والإرادة والاختيار في الليلة الخامسة والثلاثين[٢٢] ويلاحظ في هذه الموضوعات تنوعها وتدفقها وغزارتها.

وهذه إشارات موجزة لأهم موضوعات تلك الكتابة المجلسية التي عبر عنها التوحيدي في لياليه من خلال هذا الكتاب ، والموضوعات أكثر من أن تحصى لكننا نشير إلى اللافت للانتباه.

([٢١]) نفسه ، ٤٥.

([٢٢]) نفسه ، ٣٢٨.

المحور الثالث – منهج الكتابة المجلسية في (الإمتاع والمؤانسة) وأجناسها الأدبية:

بما أن موضوعات الكتابة المجلسية التي أوردها التوحيدي في كتابه متنوعة الاتجاه ، ومتعددة الأغراض فإن هذا يجعل منها منهجًا غير واضح الرؤى والمعالم ، ويبدو أن التوحيدي حرص على نقل الشفاهي كما هو ، ولم يدخل عليه سوى النقل والمعالجة الكتابية التي قد يطرأ معها تهذيب أو ترتيب.

أما الموضوعات فيلاحظ تعددها وتنوعها دون رابط أو مناسبة ، ولذلك فإن موضوعات هذه المجالس غير منضبطة ، فهي عفوية تحتمها ظروف السؤال والجواب تجد فيها انتقالا من الشعر إلى النحو إلى الفلسفة إلى التصوف أحياناً ، إلى الأخلاق إلى الحساب ، إلى أوصاف الحيوان وطباع الإنسان ، دون ترتيب فكري أو موضوعي.

ولندلل على تلك المنهجية العفوية ننظر في الليلة السادسة حيث جاء الحديث فيها عن أوصاف الأمم وتفضيل بعضها على بعض ، يقول التوحيدي في هذه الليلة : " ثم حضرته ليلة أخرى فأول ما فاتح به المجلس أن قال: أتفضل العرب على العجم أم العجم على العرب ؟ قلت: الأمم عند العلماء أربع ..."[٢٣].

وإذا تأملنا الليلة الخامسة التي قبلها فإن موضوعها أقرب ما يكون إلى الترجمة الأدبية ، ففيها ذكر بعض العلماء والتعريف بهم ، كالحديث

([٢٣]) نفسه ، ٤٥.

عن أبي إسحاق ، وابن عباد ، وأبي الحسن الفلكي وغيرهم ، وليس هذا يمهد لبدء الليلة السادسة بالحديث عن فضل الأمم ، وهو ما يعني عدم تقيد هذه المجالس بمنهج واضح.

على أن هذا التفاوت في المنهج ليس سنّة دارجة في ليالي التوحيدي ومجالسه ، بل قد نجد ترابطـــاً في المنهج بين الليالي التي يعقد فيها تلك المجالس ، وهذا ما رأيناه مثلا ًفي الليلتين الرابعة والخامسة حيث انعقد المجلس فيهما حول بعض شخصيات ذلك العصر الذي عاشه التوحيدي ، وهي شخصيات تميزت بإبداعها في الكتابة : شخصية الصاحب بن عبّاد ، وأستاذه ابن العميد ، وابنه ذو الكفايتين فقد خصـــص التوحيدي تلك الليلة للتعريف بهما وبأخلاقهما وبمذهبهما الكتابي ، ثم أردف الليلة الخامسة بما يتمم هذا الموضوع ويختمه حتى قال الوزير في نهاية تلك الليلتين: "هذا قدرٌ كافٍ إلى أن تبيّض الرسالة؛ هات ملحة الوداع"[٢٤] وكأن الوزير يؤكد على ضرورة أن يختلف منهج الكتابة ويتنوع.

([٢٤]) نفسه ، ٤٤.

- **الأجناس الأدبية التي تضمنتها الكتابة المجلسية في الإمتاع والمؤانسة:**

لا يمكن الاستشهاد بكل ما ورد ضمن ليالي التوحيدي من أجناس أدبية ، لكن يمكن أن نشير إلى أشهر تلك الأجناس الأدبية ، ولعل في طليعتها الرسائل التي كان يكاتب بها أبا الوفاء المهندس ، هذا فضلاً عن الرسائل الأدبية الأخرى التي تأتي في سياق الاستشهاد ومثلها في ذلك الخطب ، والأمثال والحكم ، والوصايا ، وأما الأخبار فتأتي على استحياء.

ويلاحظ أن الشعر أقل ورودًا من الأجناس النثرية؛ إذ لا تكاد تجده إلا ّ قليلاً كما في الليلة الأربعين ، وأحيانا تمر بك الليالي لا تجد فيها شعرًا [٢٥] وربما وجد الشعر في بعض الليالي مكثفــاً [٢٦] لكنه في مقابل جميع الليالي يعد نزرًا.

([٢٥]) انظر مثلا الليلة الخامسة ص ٤٣ ، والليلة السابعة ص ٥٩ ، والليلة الثالثة عشرة ص ١١٩ ، والليلة السابعة والعشرين ص ٢٣٨، والليلة الثامنة والعشرين ص ٢٤٤ ، وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

([٢٦]) انظر مثلاً الليلة الثلاثين ص ٢٦٥ .

المبحث الثالث : قضايا الكتابة المجلسية من خلال (الإمتاع والمؤانسة):

عالجت الكتابة المجلسية في ليالي التوحيدي قضايا متنوعة بعضها ذو صلة بالحياة الاجتماعية وبعضها ذو صلة بالجانب العلمي ، وبعضها الآخر متصل بالشأن الثقافي العام ، وهي قضايا إنما تعبر عن ثقافة المنشئ أولاً وهو التوحيدي ، وثقافة من يكاتبه ، أو يخاطبه ، فضلا عن كونها قضايا تمس الواقع المعاش ، وتترجم عن حياة الناس آنذاك ، وما يشغل تفكيرهم ، وما يدور في أوساطهم.

ويمكن اختزال بعض القضايا ذات الأثر البيّن في ليالي التوحيدي على النحو التالي:

أ – باب المفاضلات والمقارنات والموازنات:

وهو باب يعقده التوحيدي كثيرًا في مجالسه ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن أكثر هذه الليالي إنما قامت على عقد الموازنة ، أو جاءت في سياق المفاضلة التي يهدف التوحيدي من خلالها إلى الوصول إلى حقائق ثابتة.

وبما أن عصر التوحيدي – القرن الرابع الهجري – هو عصر نبوغ الكتابة وتوهجها ، وهو عصر مشاهير المترسلين؛ فقد راح التوحيدي يفاضل ويوازن بين أعلام الكتـــابة والترسل أنذاك ، وقد حوت الليلة الرابعة والخامسة مقارنات بين الصاحب بن عبّاد وابن العميد وابنه ذي الكفايتين ، وأبي إسحاق الصابئ وهؤلاء مشاهير ، كما تضمنت هذه المقارنات بين أساليب الكتابة وطرقها ذكر أسماء لا شهرة لها مثل أبي الحسن الفلكي ، ومحمد بن إبراهيم.

كما لم يغفل التوحيدي في مفاضلاته وموازناته المقارنة بين الشعراء كما نجد في الليلة الأخيرة الليلة الأربعين حيث وازن فيها بين البحتري وأبي تمام وافتتح تلك الليلة بالحديث عنهما.

ومن المفاضلات في ليالي التوحيدي أيضـــاً المفاضلة بين الأجناس البشرية كالعرب والروم والفرس والهند والصين ، وهو تفضيل انتصر التوحيدي فيه للعرب على العجم وقد رأينا هذا ماثلا في الليلة السادسة ، كما جرّت هذه الموازنات في الليلة السادسة ذيولا لها في الليلة السابعة ، ولكنها على جانب آخر وهو : المفاضلة بين العلوم ، ففي تلك الليلة عقد التوحيدي موازنة بين الحساب والبلاغة في الكتاب : "قلت: كان يذكر أن كتابة الحساب أنفع وأفضل وأعلق بالملك والسلطان إليه أحوج ، وهو بها أغنى من كتابة البلاغة والإنشاء والتحرير....."[١٤].

وقد انتصر التوحيدي للبلاغة وحاول تفنيد الآراء المفضلة الحساب عليها.

ومن المفاضلات بين العلوم ما وجد في الليلة السابعة عشرة حيث قارن فيها بين بعض علوم الشريعة وخصائصها.

ومن المفاضلات أيضـــاً في ليالي التوحيدي : الموازنة بين بعـــض الطباع والأخلاق كما نجد في الليلة التاسعة حيث جمـــع التوحيـــدي فـــي مجلسه بين ثنائيات متضادة ، وراح يوازن بينها كما في حديثه مثلا عن الصواب والخطأ ، والخير والشر ، والسخاء والبخل ، والحلم والـــسفه ، والجهل والعلم ، والصحة والمـــرض ، والـــذكاء والـــبلادة ، والغبطـــة

والحسد ، والغي والرشد ، والحركة والسكون والشك واليقين ، والصدق والكذب ، والطمع واليأس ، وغيرها كثير.

ومن المفاضلات والمقارنات : ذكر بعض أصناف الحيوانات والطيور والزواحف في الليلة العاشرة.

والمقارنة بين بعض طباع النفس البشرية وخصال الإنسان وعاداته في الليلة الرابعة والعشرين والليلة الخامسة والثلاثين ، وقد جمع التوحيدي في هذه الليلة الخامسة والثلاثين بين بعض الطباع المتشابهة كالإرادة والاختيار ، والمحبة والشهوة ، والبهجة والغبطة ، والحبور والسرور ، والدوام والخلود وقد ناقش أكثرها من وجهة نظر فلسفية.

ب – الشفاهية والكتابية:

وتعد قضية الشفاهية والكتابية من أهم مرتكزات الكتابة المجلسية ، حيث حامت تلك الليالي على هذا الأمر ودارت بين مسألتين تعدان من أعقد المسائل وأصعبها في تاريخ الأدب العربي منذ أن كان الشعر يروى في العصور الجاهلية قبل مراحل التدوين.

والتوحيدي في لياليه إنما عكف على تحويل الشفاهي إلى المكتوب ، فالمجالس التي عقدها بحضرة الوزير شفاهية ، وقد أضحت بعد ذلك كتابية حين كاتب بها صديقه أبا الوفاء ، ولعل أهمية هذا التحول من الشفاهي إلى المكتوب تظهر في كونه شكلا آخر من أشكال رصد الثقافة يمكن القول بأنها ثقافة مغايرة ، وليس بالضرورة أنها متفوقة ، فلكل مرحلة خصائص ومميزات ، وإن كانت المرحلة الشفوية هي الطفولة

الناضجة للكتابة كما يراها شعيب حليفي في مقاله (تحويل المتعة من البناء الشفوي إلى نسق المكتوب)[٢٧].

وأرى أن التوحيدي وإن حاول المزاوجة بين ما أنتجه مشافهةً وما أنتجه كتابةً قد مال إلى المكتوب ، والسبب في ذلك – فيما يبدو لي – أن عصره عصر الكتابة فلعله يريد إثبات جدارته وتأكيد تفوقه ، هذا من جانب ، أما من جانب آخر فقد صرح التوحيدي بأن المكتوب أوسع أفقاً وأكثر تدفقاً ، وهو ما تؤكده البلاغة العربية من ضرورة التريث والتدبر عند إنشاء النص ، وضرورة مراعاة ظروفه ، وظروف منتجه ومتلقيه ، وذلك ظاهر في كثير من الفقرات الزاخرة بالسجع ، التي استطاع بها التوحيدي الجمع بين أمانة النقل وبراعة النسج.

يقول التوحيدي في ختام الليلة الرابعة : "والكتاب يُتصفح أكثر من الخطاب ، لأن الكاتب مختار ، والمُخاطِبَ مضطّر ، ومن يرد عليه كتابك فليس يعلم أسرعت فيه أم أبطأت"[٢٨].

ويظهر أن هذا التحول من الشفاهية إلى الكتابية كان محفّزًا لتحبير التوحيدي مؤلفاته فيما بعد فكتاب "أخلاق الوزيرين" الذي ألفه التوحيدي في مثالب ابن العميد والصاحب بن عباد إنما هو نتاج هذه الليالي. يقول التوحيدي: "على أني عملت رسالة في أخلاقه وأخلاق ابن العميد أودعتها نَفَسي الغزير ، ولفظي الطويل القصير ، وهي في

([٢٧]) ينظر المقال في مجلة فصول ، مج ١٤، ع ٤ ، ١٩٩٦م ، ص ١٨٨ .

([٢٨]) الإمتاع والمؤانسة ، التوحيدي ، المصدر السابق ، ص٤١.

المسودة ولا جسارة لي على تحريرها ، فإن جانبه مهيب ، ولمكره دبيب (...) قال: دع هذا كله ، وانسخ لي الرسالة من المسودة ، ولا يمنعنك ذاك فإن العين لا ترمقها ، والأذن لا تسمعها ، واليد لا تنسخها"[٢٩].

والملاحظ هنا أن المجلس ساهم في تأليف الكتاب لاحقا بعد أن أخذ التوحيدي الأمان من الوزير ، وقد مرّ هذا النص الجديد "أخلاق الوزيرين" بثلاث مراحل :

- الأولى : كتابية (مسودة).
- الثانية : شفاهية (حوارية).
- الثالثة : كتابية (مبيضة).

وكان لهذا التحول دوره في إنشاء نص جديد تولد من رحم هذه النصوص ، بل مؤلف أدبي نقدي جديد وهو (أخلاق الوزيرين)[٣٠] الذي كانت نواته الأولى من تلك الأحاديث المجلسية.

([٢٩]) نفسه ، ٣٥.

([٣٠]) ينظر : أخلاق الوزيرين " مثالب الوزيرين : الصاحب بن عباد وابن العميد ، التوحيدي ، تحقيق : محمد تاويت الطنجي ، د.ط ، دار صادر ، بيروت١٤١٢ه/١٩٩٢م.

ج – تحقيق الشواهد الأدبية:

اضطلعت الكتابة المجلسية من خلال الإمتاع والمؤانسة بدور مهم في تصفية النصوص الأدبية وتصحيحها أحياناً ، ومقابلتها مع غيرها أحياناً أخرى ، ويبدو أن التوحيدي كان حريصا على أن يقوم بمهمة النقل السليم والتثبت في الاستشهاد ، وقد أتاح له النفس الكتابي أن يستدرك على ما يمكن استدراكه. يقول التوحيدي في الليلة الأولى: " قاتل الله ذا الرمة حيث يقول:

لها بَشَرٌ مثل الحرير ومَنطِقٌ رخيمُ الحواشي لا هُراءٌ ولا نَزْرُ

وكنت أنشد أيام الصبا هذا بالذال ، وكان ذلك من سوء تلقين المعلم ، وبالعراق رُدّ عليّ وقيل : هو بالزاي ... "[٣١].

وقد يوضح التوحيدي هذا التحقيق والتصحيح في شرحه للبيت كما في الليلة الثالثة حيث أورد قول الأعرابي:

أنا الغلام الأعسر الخير فيّ والشر

والشرُّ فيّ أكثر

وقال: "وهذا معنى بديع ، ولم يُرد أن البداءة بالشر خير من الخير ، وإنما أراد أني أتقي بالشر ، وإذا أقبل الشرُ قلت له : مرحبًا ، وأدفع الشر ولو بالشر ، والحديد بالحديد يُفْلَحُ وقد قال الآخر:

وفي الشر نجاة حين لا ينجيك إحسانُ[٣٢]

([٣١]) الإمتاع والمؤانسة ، التوحيدي ، المصدر السابق ، ٣٥، ٣٦.

ويلاحظ هنا أن التوحيدي جعل من الكتابة المجلسية تحقيقاً للنصوص وشرحًا لها وكشفاً عن غوامضها.

وقد يجعل التوحيدي من الكتابة المجلسية شرحًا للشواهد القرآنية كما في الليلة التاسعة والعشرين إذ طلب منه الوزير أن يفصّل في شرح قوله تعالى:" هو الأول والآخر والظاهر والباطن" وقد ساقه هذا الشرح إلى التحقيق في بعض المسائل اللغوية والنحوية والمعجمية وتصحيحها وهو ما يكشف عن ثقافة لغوية نحوية كان يتمتع بها التوحيدي . يقول في الليلة نفسها: "وقال : ما الشاكد ؟ فقيل : المعطي من غير مكافأة ، قال : أوَتْهمزُ الكلمة ؟ فقيل (هكذا) : إني لو لم أهمز لكان مفاعلةً من كفيت (...) وقال : القبص بأطراف الأصابع ، والقبض بالكف"[٣٣].

وجدير بالذكر أن معالجة التوحيدي للمسائل اللغوية النحوية والصرفية أمر نكاد نعثر عليه كثيرًا ولنؤكد على ذلك فإن الليلة الحادية والثلاثين ، والليلة السادسة والثلاثين أفصحت عن هذا الأمر.

ويتضح من خلال هذا العرض الموجز أن الكتابة المجلسية قامت بمهمة تحقيق النصوص ومعالجة الأخطاء ، والتأكد من صحتها ، والتثبت في تناولها.

([٣٢]) نفسه ، ١٩.

([٣٣]) نفسه ، ٢٦١.

د – الاهتمام بالأمثال وتوظيفها في سياق الحياة:

ناقش التوحيدي في إحدى لياليه قضية الاستشهاد بالأمثال والإكثار منها حتى إن إحدى تلك الليالي وهي الليلة السادسة والعشرون طفحت بالأمثال والحكم من أولها إلى آخرها ، وقد علق المخاطب بذلك وهو الوزير في نهايتها بقوله : "هذا فنٌّ موفٍ على الغاية"(٣٤).

ومن الحكم التي أوردها قوله: " ذُلّ الطالب بقدر حاجته ، وإذا ازدحم الجواب خفي الصواب ، الكريم للكريم مُجلّ ، موت في قوة وعز ، خير من حياة في ذل وعجز"(٣٥).

ويربط التوحيدي الأمثال التي على وزن (أفعل) بالحيوان وطباعه ويحاول أن يتلمس لذلك سببًا فيتحدث عن تبادل المثل بين الإنسان والحيوان ، وأن الإنسان قد يوصف بالحيوان في بعض الخصال والطباع ، كما أن الحيوان قد يوصف بالإنسان تشبيهًا به. يقول : "ومن العجب أنّا إذا قلنا: أروغ من ثعلب ، وأجبن من صفرد ، وأحقد من فيل ، أن هذا الروغ ، وهذا الجبن ، وهذا الحقد في هذه الأصناف ليست لتكون عدة لها مع نوع الإنسان ، ولكن لتتعاطى أيضـــاً بينها وتستعملها عند الحاجة إليها (...) ويقال للبليد من الناس : كأنه حمار ويقال للذكي من الخيل كأنه إنسان"(٣٦).

---

(٣٤) **نفسه ، ٢٣٧.**

(٣٥) **نفسه ، ٢٣٤.**

(٣٦) **نفسه ، ٢٠٨.**

لقد حاول التوحيدي من خلال الأمثال إقامة نوع من التمازج بين بعض طباع الحياة الإنسانية والحيوانية بل حتى الطبيعية في المعادن والجوهر والصخور ونحوها ، وبيّن أن ثمة علائق مشتركة قد تكون مجتمعة لدى الإنسان والحيوان والبيئة بشكل عام؛ ولهذا نجد التوحيدي يكثر من الأمثال ويتطرق إليها في مجالسه لتعبيرها عن الحياة العامة.

ه – آداب الأكل والشرب وما يدور حول الطعام من الحديث:

هو باب طرقه التوحيدي كثيرًا إلا أنه خصص له ليلتين : الواحدة والثلاثين ، والثانية والثلاثين استفاض فيهما حول ما خيض في هذا الجانب من الأخلاق المختلفة ، والأمزجة المتباينة ، والطبائع المتنائية؛ ولهذا نجد التوحيدي فيها يستشهد كثيرًا بالآيات القرآنية وأقوال المصطفى صلى الله عليه وسلم وآثار السلف في آداب المأكل والمشرب.

على أن التوحيدي قد ملّح هذه الآداب بالطرفة ، فما يزال يصرّ على إيرادها ، كما في قصة الرجل الذي عشق جارية رومية وكان يكثر عليها طلب الطعام لإقراء ضيوفه وأصحابه وكان يكاتبها بما يشتهي من طعام مرات عديدة حتى أجابته برقعة تقول فيها :"إني رأيت الحب يكون في القلب ، وحبك هذا ما تجاوز المعدة وكتبت أسفل الرقعة:

عذيري من حبيب جا ءنا في زمن الـــشـــده

وكان الحبُّ في القلبِ فصار الحبُّ في المعده(٣٧)

---

(٣٧) نفسه ، ٢٧٤.

ويركز التوحيدي في آداب المأكل والمشرب على ربطهما بحياة الناس وظروفهم وعاداتهم وثقافتهم ولهذا تجده يكرر كثيرًا معيار الشِّبَع عند الصوفية مثلا والمتكلمة والطفيلية والأعراب ، والأطباء واللصوص ، والبخلاء ، والجنود ، والزهاد ، كما يناقش هذا المعيار عند الناس حسب الأوطان فيسأل عن حدّ الشبع عند اليمنيين ، والأتراك ، والسمرقنديين ، والهنود ونحوهم.

وقد طفحت الليلة الثانية والثلاثون بلون من تلك الآداب كشّف فيها التوحيدي الشاهد الشعري وتحدث فيها عما يتصل بالمأكل والمشرب من خصال حميدة أو ذميمة كالجود والبخل ، والفقر والغنى فيقول: "وقال الشاعر:

وبالبدو جودٌ لا يزال كأنه ركامٌ بأطراف الإكام يمور[٣٨]

ولأهمية آداب المأكل والمشرب فقد أطال التوحيدي فيها الحديث في تلك الليلتين بل إن الليلة التالية لهما لم تنأ عن بعض آثارٍ وعاداتٍ تتعلق بالطعام وآدابه.

([٣٨]) نفسه ، ٢٩٧.

المبحث الرابع : وظائف الأديب وأدوار المتلقي في المجلس الأدبي

بين المتكلم والمخاطب ، أو المرسل والمتلقي وظائف وأدوار تتشكل معها كتابة النص وتتحدد ملامحها ، وتتضح معالمها ، وقد برزت وظائف التوحيدي كأديب يمثل حياة القرن الرابع الهجري بسمات شتى؛ إذ نجده كاتبًا مترسلا ، واعظــًا ناصحًا ، راويةً قاصًا ، مترجمًا أدبياً ، ناقلا لثقافات الأمم الأخرى كالهند ، والصين ، والفرس ، واليونان ، ونحوهم.

وقد اضطلع التوحيدي بوظيفة رئيسية في استحضاره المنطوق وتحويله إلى مكتوب ، فقد كان همه إنتاج تلك المساحة الشفوية في إطار كتابي يصور حياة المجالس التي عقدها من جهة ، والثقافة العامة التي عاشها وظل شاهدًا عليها ومعبرًا عنها.

على أننا أمام وظيفة غريبة مثّلها التوحيدي في كتابة مجالسه ، وهي النقل الذي يصور من خلاله محاوراته ومسامراته مع الوزير ، وهو نقل يصور فيه حياة ذلك العصر ، وهذه وظيفة شاقة اجتمعت لديه ليصورها في جهتين : جهة خاصة ، وأخرى عامة ، وربما تعرض فيها لظنون الوشاية كما ألمح إلى ذلك حمادي صمود في مقاله (المشافهة والكتابة مدخل إلى دراسة منطق التأليف في الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي) يقول : " إننا مع هذا أمام كاتب لم تر فيه السلطة أكثر من ناقل ، فأبو الوفاء المهندس يطلب منه أن ينقل له نصًا لم يعد صاحبه يذكره ، وفي ذلك النقل ما فيه من البحث عن الفائدة وضروب الإفادة ، لكنه نقل لا يخلو من رائحة الوشاية التي يريد أن يرد إليها الناقل عندما

يلح في مسألة الأمانة فيقول : حتى كأني كنت شاهدًا معكما ورقيبًا عليكما"[٣٩].

لقد استطاعت الكتابة إخراجه من طوق الناقل المخبر المطالب به في الكتاب مرتين فيما كان يدور في المجالس وفي مشروع أبي الوفاء ، وكان مطالبًا في اللحظتين بالوفاء في النقل ، إلا أن التوحيدي لم يستطع أن يكون وفيًـــا إلا لسلطة النص ومنطــق بنـــاء الأدب[٤٠].

وقد اهتمت الكتابة المجلسية لدى التوحيدي بوظيفة تأريخية ، فقد أرّخ لعصور مضت سياسيًا وأدبيًا ، وحضاريًا ، واجتماعيًا ،كما أرخ لعصره وفي زمنه كما في قوله: "وكنت في البادية في صَفَر سنة أربع وخمسين منصرفـــاً من الحج ومعي جماعة من الصوفية"[٤١].

وقد أشار زكي مبارك في النثر الفني إلى اهتمام التوحيدي بالوظيفة التاريخية، يقول: "وإنما يهتم بالنواحي التاريخية والأدبية من حياة الرجال ، فهو الذي دوّن المناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومتّى بن يونس في المفاضلة بين النحو العربي والمنطق اليوناني"[٤٢].

([٣٩]) مجلة فصول ، مج ١٤ ، ع ٤ ، ١٩٩٦ م ، ص ١٨٦.

([٤٠]) مجلة فصول ، المصدر السابق ، ص ١٧٨.

([٤١]) الإمتاع والمؤانسة ، التوحيدي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٩.

([٤٢]) النثر الفني في القرن الرابع ، زكي مبارك ، د .ط ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٥ م ، ص ٣٤٦.

وقد اضطلع التوحيدي بوظيفة الإقناع لتأكيد فكرة معينة أو الدفاع عنها ، ولأهميتها فهو يكررها في غير مجلس ، من ذلك فكرة أفضلية العرب على غيرهم من الأمم ، كما في الليلة السادسة وينسحب على ذلك فكرة المفاضلة بين الشعر والنثر فنجده يحاول الإقناع في فكرة أفضليتهما دون انتصار مباشر منه لأيهما أفضل ، وتجد ذلك في الليلة الخامسة والعشرين على سبيل المثال.

ووظيفة الإقناع عند التوحيدي تحدثت عنها ألفت كمال الروبي في مقالها (محاورات التوحيدي وتعدد الأصوات)[٤٣].

- دور المتلقي ونصيبه في الكتابة المجلسية:

يلاحظ أن المتلقي في ليالي التوحيدي ليس واحدًا ، أعني من توجه إليه خطة النص الأدبي شفاهيًا كان أو مدونًا ، وعليه فإننا بإزاء نوعين من المتلقي :

- الأول : وهو الأحدث ، وهو صديق التوحيدي أبو الوفاء المهندس وهو الذي ارتبطت به كتابة تلك الليالي ، حيث دونت له
- والثاني : وهـــو الأقدم ، وهو الوزير الحسين بن أحمد بن سعدان ، وهو الذي ارتبطت به الليالي مشافهةً ، ومحاورةً .

وقد كان لهما دور مهم في رسم تلك الليالي وصياغتها وتحريرها ، فالأول (الصديق) عنصر فاعل ورئيس في تقييد النص ، والثاني (الوزير)

([٤٣]) مجلة فصول ، مج ١٤ ، ع ٤ ، ١٩٩٦ م ، ص ١٥٣.

جزء مهم في إنتاجه الأول ، والعلاقة بين التوحيدي والوزير علاقة تفاعلية كان فيها السامع منتجاً ومحفزاً للمتكلم فهو يوجهه إما بطلب أو استفهام.

ويمكن القول أن أبا الوفاء المهندس (الصديق) ظهر دوره في البداية في طلب التحرير والكتابة إلا أن ابن سعدان (الوزير) كان له دور واضح في إحداث تفاعل بيّن يمكن القول بأنه ركن من أركان تلك الكتابة المجلسية حال نضوجها واستوائها؛ فهو الذي يطرح التساؤلات كما في الليلة الثانية "أول ما أسألك عنه حديث أبي سليمان المنطقي كيف كان كلامه فينا ؟"(٤٤).

ويلاحـــظ في تساؤلات الوزير إيجازها في مقابل إسهاب الإجابة حولها ، على أن ذلك ليس دائمًا فقد يستطرد الوزير في توجيه محور المجلس بحيث لا تجده تساؤلا بل إخبارا وقصًا كما في الليلة الثامنة: "وقال لي مرة أخرى : أوصَلَ وهب بن يعيش الرقي اليهودي رسالة يقول في عرضها بعد التقريظ الطويل العريض ..."(٤٥).

على أن المتلقي الثاني وهو أبو الوفاء (الصديق) قد يأتي مشاركاً في توجيه المجلس ، وقد يكون حضوره واضحاً في اختيار الموضوع

---

(٤٤) الإمتاع والمؤانسة ، التوحيدي ، المصدر السابق ، ص٢٣.
(٤٥) نفسه ، ٦٤.

وتحديد الفكرة ، كما في الليلة الثالثة " قال لي ليلة أخرى: حدثني أبو الوفاء عنك حديث الخراساني ، فأريد أن أسمعه منك"[٤٦].

وهنا تظهر دقة النقل من عدمها أمرًا معضلاً في الكتابة المجلسية لدى التوحيدي كما نوهنا سلفًا.

ودور المتلقي – ولا سيما الوزير – كما هو واضح في المقدمات تجده بشكل أوضح في خواتيم المجالس ، وقد اعتاد التوحيدي أن يستجيب إلى طلب الوزير في ختام كل مجلس حين يطلب منه ملحة الوداع. يقول : "قال: دعه لليلة أخرى ، وهات ملحة الوداع" [٤٧].

ويُلاحظ أن الوزير لا يطلب ملحة الوداع إلا في حال شعوره بالسأم ولذلك يصرح أحياناً بشعوره بالنوم أو الإرهاق من المجلس كما في ختام الليلة السابعة والعشرين ، إذ قال : " أرى النعاس يخطب إلى عيني حاجته"[٤٨].

وقد يعجب الوزير أحيانا ببعض المجالس فيعلق عليها في ختامها ، كما في قوله في الليلة الثالثة والعشرين : "ما أحسن هذا المجلس"[٤٩].

وقوله في ختام الليلة الرابعة والعشرين : " أين نحن من هذه الطريقة ، إلى الله المشتكى" [٥٠].

([٤٦]) نفسه ، ٢٩.

([٤٧]) نفسه ، ٢٨١.

([٤٨]) نفسه ، ٢٤٣.

([٤٩]) نفسه ، ٢٠٦.

وقد يتدخل في إصدار حكم على المجلس كما في نهاية الليلة الخامسة والعشرين يقول: "قدِّم هذا الباب ، فقد أتى على ما لم أظن أنه يُؤتى عليه ويهتدى إليه"[٥١].

ويختم الليلة الثانية والثلاثين بتعليق للوزير يقول فيه : "والله لقد وجدت رَوْحًا كثيرًا بما قلت لكم وما سمعت منكم ..." [٥٢].

ويقول الوزير في آخر الليلة التاسعة والثلاثين : "ما أفتح هذا النوع من الكلام لأبواب البديهة وأبعثه لرواقد الذهن (...) ما أحسن ما جمعت وأتيت به"[٥٣].

وبهذا يتضح دور الوزير في تغيير موضوع الليالي أحيانًا ، والتعليق عليها أحيانًا أخرى فضلا عن افتتاحها ، أو ختمها من قبل الوزير في أنحاءٍ عديدةٍ ، والفرح بموضوع الليلة والاستبشار به ، أو الوعد بالليلة القابلة له ، ونحو ذلك مما يجعل دور الوزير فيها دور المتحكم في جو صناعة النص.

---

(٥٠) نفسه ، ٢٢٢.

(٥١) نفسه ، ٢٣٢.

(٥٢) نفسه ، ٣٠٤.

(٥٣) نفسه ، ٣٧٥.

خاتمة

الكتابة المجلسية فن من الفنون الحوارية القديمة التي كرست مفاهيم معرفية ، وأدبية ، ونقدية متنوعة ، وحوت صنوفا من الآثار والأخبار ، والأجناس والأشكال ، وهي مجال رحب ، وفضاء واسع لاستقطاب المعرفة الإنسانية ، والتعبير عن ثقافة الأمم ، وتاريخ الشعوب ، وأحوال العصور وهي التي كشفت النقاب عن العلاقة بين مرحلتين مهمتين في المعرفة الإنسانية : المرحلة الكتابية والمرحلة الشفوية ، فقد جسّدت الأمالي والمجالس آثار تلك المرحلتين ، وصبغت هذا الفن بصبغة أدبية نقدية بفضل ما تميزت به من أشكال حوارية داخل أجواء القصة والحكاية ، وما تضمنته من نصوص شعرية ونثرية متميزة.

وقد توقفنا عند كتاب يمثل أحد أركان الكتابة المجلسية (المجالس) في كتاب التوحيدي (الإمتاع والمؤانسة) الذي تنوعت لياليه بأشكال ومضامين متنوعة ، وقد وقع اختيارنا عليه لما فيه من تصوير لثقافة العصر ، وثقافة الكاتب ، وثقافة المجتمع ، ثم إنه مثل المرحلتين اللتين عادة ما تمر بهما الأمالي والمجالس : الشفوية والكتابية ، أو التسويد والتبييض ، وإلا فدراسة الكتابة المجلسية يمكن أن تطبق على عدد وافر من كتب الأدب القديم التي تضم مجالسا أو أمال كمجالسات ثعلب ، أو أمالي القالي.

ولعل من أبرز توصيات البحث التنويه إلى دراسة هذا الفن في كتب الأمالي أو المجالس ، ومن أشهر وأهم ما يمكن دراسته في هذا

المجال كتاب الأمالي لأبي علي القالي (ت٣٥٦هـ) فهو من أركان الأدب بحسب ابن خلدون ، وهو مصدر أدبي رئيس اشتمل على الشعر والنثر ، وحوى صنوفا عدة من العلوم والمعارف ، وقد أثنى على هذا الكتاب قبل ابن خلدون ابنُ حزم ، وياقوتٌ الحموي.

وقد جرى المصنف في هذا الكتاب على طريقة القدماء في سرد ما يحضره ، ويملي ما يريده في مجالس متفرقة لا ينتظمها سلك واحد ، أو خيط واضح ، أو باب بعينه ، وقد سعى إلى تنوع مادة كتابه بين الأدب والسياسة والاجتماع والتاريخ والتفسير ، وإن كان تركيزه على الأدب أوضح؛ ومن هنا فمحاولة دراسة الكتابة المجلسية فيه أمرٌ يغري بالبحث.

ومما يمكن الخروج به من نتائج في هذا البحث الوقوف عند هذا الفن الكتابي ومحاولة إحيائه مـــن جديد لاسيما في ظل انعدام وجوده حديثا ، إلا أن فنا قريب الشبه به وهو (المحاضرات) يعد أثرا حديثا يحتاج إلى إقامة الصلة بينه وبين المجالس والأمالي إما مقارنة أو مقاربة ، هذا إذا أدركنا وجود مسمى قديما للمحاضرات تمثل في مؤلف الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢ه) محاضرات الأدباء.

ولعل من الدراسات المهتمة بالأمالي والمجالس والتي يمكن احتذاؤها – رغم قلتها – في هذا المجال :

– المباحث النقدية في أمالي المرتضى ، للدكتور/ وليد محمود.

- مجالس الأدباء في قصور الخلفاء العباسيين ، للدكتور/ مصطفى البشير قط.

- المجالس العلمية في عصري ما قبل الإسلام والرسالة والعصور الراشدية والأموية والعباسية للدكتورة/ خلود مسافر الجنابي.

- الحركة الأدبية في مجالس هارون الرشيد ، للدكتور/ محمود بن سعود الحليبي.

وقد حاولنا جاهدين في هذا البحث أن نلم بهذا الفن الكتابي الفضفاض ، فأشرنا إلى مفهومه وإشكالاته ممهدين بذلك للدخول إلى عالم التوحيدي وكتابه (الإمتاع والمؤانسة) وما اشتمل عليه كتابه من موضوعات ، وأجناس ، وقضايا ، ووظائف الأديب فيه ، وأدوار المتلقي وحظه من تلك المجالس ، وهانحن نختم هذا البحث فما كان فيه من توفيق وصواب فمن الله ، وما كان من سهو أو خطأ فمن نفسي والشيطان.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مادة البحث

مصادر – مراجع – دوريات

- **المصادر:**

١ – الإمتاع والمؤانسة ، التوحيدي ، عني به : عبدالرحمن المصطاوي ، ط/١، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤ م.

٢ – أخلاق الوزيرين " مثالب الوزيرين : الصاحب بن عباد وابن العميد ، التوحيدي ، تحقيق : محمد تاويت الطنجي ، د.ط ، دار صادر ، بيروت١٤١٢ه/١٩٩٢م.

- **المراجع :**

١ – إتحاف النبلاء بوصف مجالس العلماء السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط/١، مكتبة طبرية، الرياض ١٤١٣ه.

٢ – أدبية النص السردي عند أبي حيان التوجيدي ، حسن إبراهيم الأحمد ، د.ط ، التكوين للتأليف والترجمة والنشر ، دمشق ٢٠٠٩م.

٣ – إنباه الرواة ، القفطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/١ ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت.

٤ – بغية الوعاة ، السيوطي ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، ط/١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٢٥هـ .

٥ – العود الهندي عن أمالي في ديوان المتنبي ، عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، ط/٢ ، دار المنهاج ١٤٣١ه/٢٠١٠م.

٦ – كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، تصحيح : محمد شرف الدين ، ورفعت الكليسي د.ط. دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان د. ت.

٧ – الفهرست ، ابن النديم ، تحقيق : الشيخ إبراهيم رمضان ، ط/٢ ، دار الفتوى ، بيروت ١٤١٧هـ.

٨ – المزهر ، السيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون ، ط/١ ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت.

٩ – معجم الأدباء ، الحموي ، تحقيق : إحسان عباس، ط/ ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٣م.

١٠– النثر الفني في القرن الرابع ، زكي مبارك ، د .ط ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٥م.

١١– وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، تحقيق : إحسان عباس ، ط/٤ ، دار صادر ، بيروت.

- **الدوريات :**

– مجلة فصول ، مج ١٤ ، ع ٤ ، ١٩٩٦ م.